بسم الله الرحمن الرحيم

عذاب القبر والثعبان الأقرع

مقدمة الطبعة الأولى

ماذا يراد بنا؟!

في الوقت الذي يستعد فيه العالم لارتياد القرن الحادى والعشرين بمزيد من التقدم فى العلوم تقدماً يقترب من الخيال، يحصر المسلمون اهتماماتهم حول قضايا ترجع إلى خرافات تنتمى إلى القرن الحادى والعشرين قبل الميلاد. من نوع عذاب القبر والثعبان الأقرع التي اخترعها أجدادنا المصريون القدماء ثم عادت إلينا منسوبة زوراً إلى النبي، ونحن مشغوفون بهذه الخرافة ونعتبرها من المعلوم من الدين بالضرورة من أنكرها يكون كافراً.
وهكذا ينفصل المسلمون عن عصرهم بأكثر من أربع آلاف سنة مع أن الإسلام حين نزل في القرن السابع الميلادي وقف موقفاً حازماً من الأساطير والخرافات ووضع منهجاً علمياً تجريبياً في القرآن للبحث والاكتشاف.. لكن الأسلاف ركنوا إلى الخرافة وأهملوا ما جاء في القرآن الكريم من منهج علمي تجريبي.. وعندما بدأت الصحوة في العصر الحديث فوجئنا بخرافات العصور الوسطى التي يرفضها القرآن الكريم وقد عادت إلى الظهور والتأثير على عقول الشباب المتدينين ليزدادوا تخلفاً باسم الإسلام وهو دين العلم ودين التعقل والتبصر.
مرة أخرى.. ماذا يراد بنا؟!
هل يراد بنا أن نكون رقيق القرن الحادي والعشرين نعيش في زوايا النسيان بينما يتقدم العالم من حولنا.. هل يراد بديننا الحنيف أن يكون عنواناً للإرهاب والعجز والتخلف والخرافة؟
إن هذه الدراسة الموجزة عن عذاب القبر وأساطيره محاولة متواضعة لتبرئة الإسلام وتنبيه المسلمين، وهو هدف نبيل يستحق أن نتحمل من أجله المزيد من أذى وتطاول الذين اتخذوا القرآن مهجوراً، وأن نصبر ونتسامح.. والله تعالى ولي الصابرين.

د. أحمد صبحي منصور

القاهرة في 1414 هـ - 1994م

الفصل الأول

عذاب القبر والثعبان الأقرع في ضوء القرآن والسنة

العقائد التي لا وجود لها في القرآن يحاول أصحابها إيجاد سند شرعي لها بتأويل الآيات وتأليف الأحاديث ونسبتها للرسول عليه الصلاة والسلام. ذلك ما ينطبق على موضوع عذاب القبر ونعيمه والثعبان الأقرع أو الشجاع الأقرع.
وإذا ما حاول باحث مخلص لدينه حريص على تبرئة النبي عليه الصلاة والسلام مما ينسب إليه من أكاذيب - إذا ما حاول الاحتكام إلى القرآن الكريم في توضيح تلك القضايا تناولته الاتهامات من كل جانب وأسهلها أنه منكر لسنة النبي عليه السلام.

علاقة السنة بالقرآن:
والسؤال الذي يفرض نفسه هنا:
ما المعنى المراد بسنة النبي التي يرفعون منها شعاراً يداري عجزهم عن الاجتهاد ورفضهم للحق القرآني؟.
إن النبي عليه السلام كان متبعاً للقرآن، ومن يحب النبي فعلاً هو ذلك الذي يؤمن بأن أقوال النبي وأفعاله كانت تأكيداً للقرآن ولم تكن أبداً مناقضة للقرآن، أي كانت طاعة لله تعالى وكتابه الكريم ولم تكن عصياناً لله تعالى وقرآنه.. وذلك الذي يؤمن بالنبي ويحبه يكون أحرص على تبرئة النبي من ذلك الزيف الذي نسبوه إليه والذي يجعله يقول ما يخالف القرآن ويضعه في موقع العصيان للرحمن..
أما الذي يحرص على نسبة ذلك الزيف للنبي بزعم أنها سنة النبي ويغلق عقله عن تدبر آيات القرآن الكريم فإنما يضع نفسه في قائمة أعداء النبي دون أن يدري، لأن السنة الحقيقية للنبي تطابق القرآن، ولأن القرآن والمنهج الذي كان يحكم به النبي عليه الصلاة والسلام، ولأن الله تعالى جعل مقياس العداوة للنبي هو في إتباع الأحاديث الشيطانية التي ينسبها شياطين الأنس والجن لله ورسوله وهى تخالف الكتاب العزيز.
واقرأ قوله تعالى عن مشاهد يوم القيامة (وَيَوْمَ يَعَضّ الظّالِمُ عَلَىَ يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي اتّخَذْتُ مَعَ الرّسُولِ سَبِيلاً. يَوَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتّخِذْ فُلاَناً خَلِيلاً. لّقَدْ أَضَلّنِي عَنِ الذّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي وَكَانَ الشّيْطَانُ لِلإِنْسَانِ خَذُولاً. وَقَالَ الرّسُولُ يَرَبّ إِنّ قَوْمِي اتّخَذُواْ هَـَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلّ نَبِيّ عَدُوّاً مّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىَ بِرَبّكَ هَادِياً وَنَصِيراً) (الفرقان27، 31).
يندم المجرم يوم القيامة يتمنى لو أتخذ مع الرسول عليه الصلاة والسلام سبيلاً وليته ما أتخذ فلاناً خليلاً، ذلك الذي أضله عن الذكر- أي القرآن- إذن فسبيل الله ورسوله هو القرآن وهو الذكر، يقول تعالى: (صَ وَالْقُرْآنِ ذِي الذّكْرِ) (ص1).

ويندم على أنه أسلم قياده للشيطان فخذله الشيطان، ثم ينتقل القرآن إلى مشهد آخر يعلن فيه الرسول براءته ممن اتخذ القرآن مهجوراً، ولم يقل القرآن وقال الرسول يا رب إن قومي هجروا القرآن، وإنما قال "اتخذوا القرآن مهجورا" أي اتخذوه في صورة كان فيها موجوداً وكان أيضاً مهجوراً، فكيف كان موجوداً ومهجوراً في نفس الوقت؟ هذا هو ما يحدث الآن، فالقرآن معنا ولكننا نهجره إلى أقاويل أخرى تناقصه وتعارضه، وإمعاناً في الكيد لله ورسوله نصمم على نسبة تلك الأقاويل للنبى...!! ولذلك يقول رب العزة في التعليق (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلّ نَبِيّ عَدُوّاً مّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىَ بِرَبّكَ هَادِياً وَنَصِيراً) (الفرقان31).

الأحاديث المزورة ليست سنة النبي:

إن هجر القرآن وعدم الاعتداد به هو عداء لله تعالى ورسوله، وهو خصومة للرسول تجعله يعلن براءته ممن يصمم على نسبة أقوال الزور إليه وهى تخالف القرآن الحكيم، علاوة على أنه عليه الصلاة والسلام لم يقلها ولم يعرفها، بل إنه ـ كما هو معروف ـ نهى عن تدوين غير القرآن، وأمر بمحو أي كلام له: "لا تكتبوا عني غير القرآن، ومن كتب غير القرآن فليمحه". وعلى ذلك سار الصحابة، ما كان معهم كتاب غير القرآن وأول خطبة لعمر بن عبد العزيز قال فيها: "أما بعد فإنه لا كتاب بعد القرآن وإني متبع ولست بمبتدع".

ثم حدثت الأهواء وانتشرت أحاديث منسوبة للنبي أتيح لها أن تكتب منذ القرن الثالث الهجري كتابة منظمة، وكل منهم يكتب من الأحاديث ما يتصور أنه سنة النبي، وكل منهم يكتب ما يخالف به الآخر، بل ويناقض نفسه أحياناً في الصفحة الواحدة، علاوة على ما فيها من أحاديث تتناقض صراحة مع الكتاب العزيز وما كان عليه خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام.. ومع ذلك فقد اختلفوا فيما كانوا يكتبون، وعكفوا عليه قروناً من الزمان يختلفون في هذه الرواية وذلك السند وتلك السلسلة، إلى أن فاجأنا غزو نابليون بونابرت فهرع الشيوخ إلى كتب البخاري يلتمسون منه العون والمدد أمام مدافع الفرنسيين فلم يغن عنهم البخاري شيئاً، بل اقتحم الفرنسيون الأزهر بخيولهم.. ولا حول ولا قوة إلا بالله!!

طريقان للصحوة:

وأحدثت الحملة الفرنسية ـ وقبلها التدخلات البريطانية في الخليج العربي والدولة العثمانية ـ هزة عنيفة في المجتمعات الإسلامية التي بدأت في النهوض واتخاذ طريقين.. في صحراء نجد ظهرت الدعوة الوهابية تنشد العودة إلى الماضي وتعتبر التصوف وحده سبب التخلف وتزعم أن الأحاديث التي رواها السلف هي سبيل النجاة.. وفى مصر نهض محمد علي إلى إنشاء دولة عصرية على النسق الأوروبي، وسار مشروع الدولة الحديثة يتقدم حيناً ويكبوا أحياناً حسب النفوذ الأجنبي وشخصية الحاكم، بينما قامت الدولة الوهابية السعودية ثلاث مرات وسقطت مرتين.. إلى أن جاء عصر النفط وأتيح لثقافة الوهابيين أن تغزو عقول المصريين والمسلمين عبر قطار النفط السريع فأعيدت إلى المناقشات الفكرية قبيل القرن الحادي والعشرين قضايا كانت تعتبر في العصور الوسطى في قاع التراث مثل اللحية والجلباب والثعبان الأقرع وعذاب القبر وسائر الغيبيات الخرافية التى يرفضها القرآن الحكيم..

عصر النفط والصحوة:

وقبل عصر النفط كان في مصر حركة اجتهاد ديني بين جنبات الأزهر تزعمها الإمام محمد عبده ومدرسته المتفتحة، وظل عطاء هذه المدرسة قائماً ومتجدداً حتى الستينات من هذا القرن العشرين في شخص الشيخ محمود شلتوت، والذي ردد أقوال الإمام في كتبه (الإسلام عقيدة وشريعة)، (الفتاوي)، (من توجيهات الإسلام) وقدم لنا الوجه الحقيقي للاستنارة الإسلامية في موضوعات البنوك والفوائد، وفيما يخص أمور الغيبيات مثل علامات الساعة وأحوال اليوم الآخر أعلن أن مصدرها الوحيد هو القرآن الكريم لأن أغلبية الأحاديث أحاديث تفيد الظن ولا تفيد اليقين.. وبالتالي فإنه لم يعط مشروعية دينية أو أصولية للخرافات (المقدسة) التي تتحدث بالأحاديث عن عذاب القبر ونعيمه وغيرها من الغيبيات.

وتلك النهضة العقلية التي ظلت ترفع الاستنارة في الأزهر وتنتشر منه للعالم الإسلامى ما لبث أن أطاح بها عصر النفط الذي أعاد في عقول الشباب أسوأ عصور التراث في القرون الوسطى، بحيث أن ترديد أفكار الشيخ شلتوت التي كانت تقال منذ ثلاثين عاماً فقط تعتبر مخاطرة ودخولاً في دائرة المحظور، والأكثر مخاطرة والأكثر تهديداً لحياتك أن ترجع للقرآن الكريم وتحتكم إليه، فإنك بذلك تضع خصومك أمام موقف حرج لا يستطيعون التخلص منه إلا بكيل الاتهامات لك واضطهادك ما أمكن، وذلك موجز تاريخ كاتب السطور فى العشرين سنة الماضية.

على أنه لا مفر لنا من الاحتكام للقرآن في هذه القضية في موضوع عذاب القبر نفسه وفى الأحاديث المنسوبة للنبى عليه الصلاة والسلام بشأنها، ونرجو الهداية لنا ولغيرنا ونتمسك بالتسامح والغفران لمن يترك الموضوع وينهال علينا بالسباب والتجريح.. عندما يعجزه الرد.

هل للنبي أحاديث في عذاب القبر؟

عذاب القبر وما يحدث في اليوم الآخر وعلامات الساعة كلها تدخل في نطاق السمعيات أو الغيبيات.. وهناك قسم كبير من الأحاديث المنسوبة للنبي في كتب التراث تتحدث عن هذه الغيبيات منها أحديث علامات الساعة وقيامها والمهدي المنتظر وأحوال الآخرة والشفاعة والخروج من النار والمبشرين بالجنة.. كل تلك الأحاديث تدخل في إطار الغيبيات والسمعيات.. والسؤال الهام الآن: هل قال النبي فعلاً تلك الأحاديث؟.

إن علماء الأصول يقولون أن أمور السمعيات أو الغيبيات لا تؤخذ إلا من القرآن الكريم والأحاديث المتواترة فقط.. ونتساءل ما هي الأحاديث المتواترة التي يمكن أن نأخذ منها أمور الغيبيات مأخذ العلم اليقين والتسليم؟.

إن الحديث المتواتر هو الذى يفيد اليقين وليس محلاً للشك أو الظن، وعند أكثرية المحققين مثل الحازمي والشاطبي وأبى حيان والبستي والنووي فإنه لا وجود للحديث المتواتر.

وبعضهم أثبت وجود حديث واحد متواتر هو حديث "من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار" على اختلاف بينهم في وجود كلمة "متعمداً" أو حذفها.

بعضهم أرتفع بالحديث المتواتر إلى ثلاثة أو خمسة.. ولكن ليس من بينها إطلاقاً حديث عن عذاب القبر أو نعيمه، وبالتالي فإن المرجع في موضوعنا هو القرآن فقط.

وإذا نحينا الحديث المتواتر جانباً وجدنا أمامنا غير القرآن تلك الألوف المؤلفة من الأحاديث التي يقال عنها أحاديث آحاد والتي تفيد الظن ولا تفيد العلم واليقين، وبالتالي فليست محلاً للاعتماد عليها فى أمور الغيبيات والسمعيات كما قال علماء الأصول.
ونتساءل: إذن فلماذا نحتاج إلى وجود تلك الأحاديث التي تملأ كتب التراث وهي تتحدث بالظن والتخمين وليس بالعلم واليقين عن قضايا اعتقادية مثل الغيبيات والسمعيات؟.
كان ذلك مأزقاً شديداً أمام علماء الأصول، وخرجوا منه بأن تلك القضايا الغيبية قضايا خلافية اجتهادية، وكل فريق عزز مذهبه فيها بالأحاديث التي عنده، ولذلك امتلأت كتب الفرق الإسلامية مثل كتاب "مقالات المسلمين" بالاختلافات المتشعبة مع أنهم جميعاً مسلمون.
ونترك علماء الأصول وآراءهم واجتهاداتهم ونلتفت إلى القرآن الكريم نحاول الإجابة على نفس السؤال: هل تحدث النبي عن عذاب القبر، وبمعنى آخر: هل كان النبي يتحدث عن الغيبيات؟ وبمعنى آخر: هل كان النبي يعلم الغيب ويتحدث في الغيبيات من واقع علمه بالغيب؟..
إن الإجابة على هذه الأسئلة من القرآن الكريم تستلزم منا أن نضع عناوين للعديد من الآيات التي تؤكد نفس المعنى الذي يحتويه العنوان والتي لا يستطيع المسلم إلا أن يقول لكل آية عبارة واحدة هى "صدق الله العظيم".

الله وحده هو الذي يعلم الغيب:

هذا المعنى تؤكده الآيات الكريمة الآتية (وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَآ إِلاّ هُوَ) (الأنعام 59). (فَقُلْ إِنّمَا الْغَيْبُ للّهِ) (يونس 20). (وَللّهِ غَيْبُ السّمَاوَاتِ وَالأرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأمْرُ كُلّهُ) (هود 123). (وَلِلّهِ غَيْبُ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) (النحل 77). (قُل لاّ يَعْلَمُ مَن فِي السّمَاوَاتِ والأرْضِ الْغَيْبَ إِلاّ اللّهُ) (النمل65).
وكل الآيات الكريمة تؤكد نفس المعنى بأسلوب القصر والحصر، أي لا يعلم الغيب إلا الله، مثل قولك لا إله إلا الله.. لأن العلم بالغيب صفة إلهية.

الأنبياء والغيب:

يقول تعالى: (وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنّ اللّهَ يَجْتَبِي مِن رّسُلِهِ مَن يَشَآءُ) (آل عمران179).. (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَىَ غَيْبِهِ أَحَداً. إِلاّ مَنِ ارْتَضَىَ مِن رّسُولٍ) (الجن 26، 27).
وقد أعطى الله بعض أنبيائه مثل يوسف وعيسى بعض الغيوب م ثل تفسير الأحلام كوسيلة من وسائل إثبات نبوتهم. لكن أنبياء آخرين لم يعطهم الله العلم بشيء من الغيب وقد أعلنوا ذلك صراحة مثل نوح عليه السلام الذى كان يقول لقومه (وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ) (هود31).
وقد أكد القرآن على أن خاتم النبيين لا يعلم الغيب في قوله تعالى: (قُل لاّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلآ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلآ أَقُولُ لَكُمْ إِنّي مَلَكٌ إِنْ أَتّبِعُ إِلاّ مَا يُوحَىَ إِلَيّ) (الأنعام50).
أي أن الله تعالى أمر خاتم النبيين بأن يعلن أنه لا يملك خزائن الله وأنه لا يعلم الغيب وأنه ليس ملكاً من الملائكة، ويزيد على ذلك بتأكيد أنه يتبع الوحي، وأنه لا يمكن أن يتكلم بما يخالف الوحي وأوامر به (إِنْ أَتّبِعُ إِلاّ مَا يُوحَىَ إِلَيّ).

والله تعالى يأمر خاتم النبيين بأن يعلن بأنه لا يعلم موعد الساعة أقريب هو أم بعيد، لأن الله لم يطلع على غيبه إلا من ارتضى من رسله وليس هو منهم (قُلْ إِنْ أَدْرِيَ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّيَ أَمَداً. عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَىَ غَيْبِهِ أَحَداً. إِلاّ مَنِ ارْتَضَىَ مِن رّسُولٍ) (الجن25: 27).
كانوا يسألون النبي عن الساعة وكان النبي يرفض الإجابة ونزل الوحي (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السّاعَةِ أَيّانَ مُرْسَاهَا. فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا. إِلَىَ رَبّكَ مُنتَهَاهَآ. إِنّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا) وقوله تعالى للنبي (فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا) تساؤل ينكر من البداية توجيه ذلك التساؤل إليه، لأن أمور الساعة من الغيبيات، والنبي لا شأن له بمعرفة الغيبيات.
وتكرر السؤال للنبي وجاءت الإجابة بشكل أكثر تفصيلاً وأكثر تحديداً، يقول تعالى: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السّاعَةِ أَيّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبّي لاَ يُجَلّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلاّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السّمَاوَاتِ وَالأرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنّكَ حَفِيّ عَنْهَا قُلْ إِنّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللّهِ وَلَـَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ) (الأعراف187).
والآية بعد أن تؤكد علم الساعة هو من عند الله وحده، تؤكد على أن النبي لا يعلم شيئاً عنها، ويأتي ذلك بصورة استنكارية (يَسْأَلُونَكَ كَأَنّكَ حَفِيّ عَنْهَا).
ثم تأتى الآية التالية تؤكد أن النبي لا يعلم الغيب (قُل لاّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاّ مَا شَآءَ اللّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسّنِيَ السّوَءُ إِنْ أَنَاْ إِلاّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (الأعراف188). أمره ربه أن يعلن أنه لا يملك لنفسه - فضلاً عن غيره - نفعاً ولا ضرراً إلا ما شاء الله، وإنه لو كان يعلم الغيب لاستكثر من الخير وما أصابه السوء.. وفعلاً لو كان يعلم الغيب ما حدثت له الهزيمة فى أحد ولاستكثر من النصر فى بدر وغيرها..
ولو كان يعلم الغيب ما وقع ضحية لخداع المنافقين حين كانوا يكذبون عليه فيصدقهم، وفى إحدى المرات أقنعوه بأن اللص ليس لصاً بل برئ وطلبوا منه أن يدافع عن ذلك اللص البريء فدافع عنه النبي مخدوعاً بكلامهم، ونزل الوحي يعتب على النبي ويقول له: (إِنّآ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النّاسِ بِمَآ أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُنْ لّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً) أي لا تكن محامياً عن الخائنين، ثم يأمره بالاستغفار (وَاسْتَغْفِرِ اللّهِ إِنّ اللّهَ كَانَ غَفُوراً رّحِيماً) ويأمره ربه بألا يدافع عن الخونة: (وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنّ اللّهَ لاَ يُحِبّ مَن كَانَ خَوّاناً أَثِيماً) (النساء105، 107).
أولئك الذين يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله، وكانوا يتآمرون على خداع النبي وصدقهم لأنه لا يعلم الغيب، ثم نزل الوحي يخبر بالحقيقة ولو كان النبي يعلم الغيب ما استطاعوا خداعه..
وكانوا يدخلون عليه يقدمون له فروض الطاعة ثم يخرجون من عنده يتآمرون عليه، وهو لا يعلم شيئاً عن ذلك الغيب إلى أن ينزل الوحي يخبره: (وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيّتَ طَآئِفَةٌ مّنْهُمْ غَيْرَ الّذِي تَقُولُ وَاللّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكّلْ عَلَى اللّهِ وَكَفَىَ بِاللّهِ وَكِيلاً) (النساء81).
لم يكن يعلم الغيب وكان ذلك واضحاً فى سيرته القرآنية أو غزواته التي حكاها المؤرخون.
وبالتالي فقد كان يتصرف فى غزواته وفق إمكاناته البشرية.
وكانوا يسألونه عن الغيبيات مثل أمر الساعة فينزل القرآن يستنكر ذلك السؤال ويؤكد على أن النبي لا يعلم الغيب..
وهناك آية جامعة محكمة فاصلة في الموضوع: (قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مّنَ الرّسُلِ وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ إِنْ أَتّبِعُ إِلاّ مَا يُوحَىَ إِلَيّ وَمَآ أَنَاْ إِلاّ نَذِيرٌ مّبِينٌ) (الأحقاف9).

أي أمره ربه بأن يعلن أنه ليس متميزاً عن الرسل (قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مّنَ الرّسُلِ).
وأمره أن يعلن أنه لا يدري ولا يعلم ما سيحدث له أو ما سيحدث لغيره فى المستقبل سواء في الدنيا أو عند الموت أو في البرزخ، أو عند قيام الساعة أو في الآخرة، وبالتالي فلا يمكن أن يتكلم في أشياء لا يعلمها فقد أمره ربه أن يعلن أنه يتبع ما يوحى إليه فقط، أي يطيع أوامر ربه (إِنْ أَتّبِعُ إِلاّ مَا يُوحَىَ) ومعناه أن النبي لا يمكن أن يتكلم مثلاً عن عذاب القبر لأنه غيب..
والمعنى المستفاد مما سبق أن النبي لم يتكلم أبداً عن الغيبيات، ومن واجب المؤمن تبرئة النبي من ذلك الزيف المنسوب إليه والذى يخالف القرآن..
والآيات السابقة وهي تؤكد على أن النبي لا يعلم الغيب تضع الذين يتمسكون بأحاديث الغيبيات وعذاب القبر والشفاعة في موقف حرج.. فهم إن آمنوا بتلك الأحاديث فقد كفروا بآيات القرآن، وإن آمنوا بالقرآن فقد كفروا بتلك الأحاديث.. ولا يمكن أن يؤمن الإنسان بالشىء ونقيضه.. والمتمسكون بتلك الأحاديث التي تخالف القرآن مضطرون لأن يعلنوا باللسان إيمانهم بالقرآن، ولكن مأزقهم الحقيقى في أنهم يؤمنون فعلاً بتلك الأحاديث مهما تناقضت مع القرآن، ولا يستطيعون نفي الآيات القرآنية التي تخالف هواهم ولكي يخرجوا من هذا المأزق فإنهم ينسون القضية تماماً ويكتفون بكيل الاتهامات والسباب لكاتب هذه السطور.
بسيطة...!! لكن هل يستطيع السبّاب أن يحل المشكلة؟.. لا أعتقد!!..

ونخلص مما سبق إلى تقرير الآتي:

1- أن السنة الحقيقية هى إتباع القرآن، وأن القرآن يؤكد على أن النبي لا يعلم الغيبيات ولا يتحدث في الغيبيات، إذن فالسنة الحقيقية للنبي تخلو من أي حديث له عن عذاب القبر وغيره من الغيبيات.. ذلك هو ما نستخلصه من القرآن العزيز.
2- إن علماء الأصول يقرون أن أمور الغيبيات لا تؤخذ إلا من القرآن والحديث المتواتر، وحيث أن الحديث المتواتر لا وجود له عند أغلب المحققين وحيث أن من أثبت وجود بعض الأحاديث المتواترة فليس منها شىء عن عذاب القبر، لذلك فالأحاديث الأخرى - أحاديث الآحاد - ليست مصدراً معتمداً ًلإثبات عذاب القبر أو نفيه، لأن القرآن وحده هو المرجع.
3- إذا كان الله تعالى لم يعط النبي علم الغيب وإذا كان النبي لم يتحدث عن الغيبيات فإن غير النبي أولى بعدم معرفة الغيب، وبالتالي لا تؤخذ منه أقوال عن غيبيات القبر ولا يصح الاحتجاج به. ومع ذلك تحفل كتب الحديث بالأحاديث المنسوبة زوراً إلى النبي الكريم ومن بينها أحاديث تعرض للوسائل التي تنجي المؤمن من عذاب القبر مثل الموت يوم الجمعة أو ليلتها؟! أو الموت بداء البطن؟! فيزعمون أن الرسول قال: "ما من مسلم يموت يوم الجمعة إلا وقاه الله تعالى فتنة القبر" وقوله: "من تقتله بطنه فلا يعذب في قبره".

الفصل الثاني

قضية الحساب في النسق القرآني

حديث القرآن عن قضية الحساب يأتي ضمن منظومة كاملة تتحدث عن خلق النفس وموتها وحياتها والبرزخ والموت والنوم والبعث والنشور. وكي نفهم الموضوع لابد أن نبدأ البداية ونسير إلى النهاية وكل ذلك بالآيات القرآنية وبالترتيب.
وبداية لابد أن نقرر أنه لم يرد في القرآن الكريم مطلقاً ذكر ما يسمى بعذاب القبر أو نعيمه أو الثعبان الأقرع، وحيث أن القرآن الكريم هو المصدر الوحيد المعتمد في القضية فالحكم هنا قاطع في نفي عذاب القبر ونعيمه وثعبانه.
لكن البعض يخلط بين القبر وما ورد فى القرآن حول البرزخ، ويرتبون على ذلك القول بعذاب القبر ونعيمه، وهذا يدعونا للبحث في ماهية النفس الإنسانية، وفي علاقتها بالجسد وفي ماهية الموت وفي مصير الجسد بعد الموت، لنصل إلى تحديد المقصود بالبرزخ ومصير النفس الإنسانية فيه حتى البعث يوم القيامة حيث يتم الحساب.

الخلق - الموت - البرزخ - البعث:
إن الله تعالى خلق كل الأنفس البشرية في وقت واحد، يقول تعالى: (يَأَيّهَا النّاسُ اتّقُواْ رَبّكُمُ الّذِي خَلَقَكُمْ مّن نّفْسٍ وَاحِدَةٍ)، (النساء1). ومن النفس الأولى انبثقت الأنفس الأخرى. وكل نفس تحمل في داخلها مستقراً للسابقين والمستودع للاحقين (وَهُوَ الّذِيَ أَنشَأَكُم مّن نّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرّ وَمُسْتَوْدَعٌ) (الأنعام98).
وكل نفس تكون ميتة في عالم البرزخ إلى أن يأتي الوقت الذي ترتدي فيه الجسد البشري، وحينئذ ينتفض الجنين في بطن أمه، وتدخل فيه تلك القوة المجهولة التي نسميها النفس، ذلك الكائن العاقل المسئول الذي يعطى للجسد ماهيته وكينونته، وتظل النفس حية بذلك الجسد طيلة العمر المقدر لها أن تعيشه في ذلك الكوكب الأرضي المادي، إلى أن ينتهي الأجل ويحل موعد الوفاة أو الموت، وحينئذ تفارق النفس الجسد وتغوص في البرزخ الذي أتت منه وتعود إلى نفس الموات الذى كانت فيه في البرزخ..
وهكذا.. فكل الأنفس البشرية مخلوقة معاً، ولكن تدخل كل نفس جسدها وترتديه في الوقت المحدد لها حين ينتفض الجنين، ثم بعد أن تقضي عمرها في الحياة الدنيا تعود إلى العدم أو البرزخ.. وبعد أن تدخل كل نفس تجربتها أو حياتها الدنيا تموت، تكون القيامة.. ويكون البعث، بعث الموتى جميعاً من البرزخ.. وتكون الحياة الأبدية فى الآخرة فى الجنة أو في النار..
ومعنى ذلك أننا كنا موتى أولاً في البرزخ ، ثم ندخل الحياة الدنيا الأولى، ثم سنموت راجعين إلى البرزخ في أوقات مختلفة عندما يفارق الواحد منا هذه الحياة، ثم البعث للجميع حيث سنحيا في الآخرة الحياة الأبدية.. يقول تعالى: (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمّ يُمِيتُكُمْ ثُمّ يُحْيِيكُمْ) (البقرة 28).. ويوم القيامة يدرك أصحاب النار هذه الحقيقة فيقولون (قَالُواْ رَبّنَآ أَمَتّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا

اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ) (غافر 11) إذن هو موت في البداية، ثم الحياة الدنيا التي نحياها الآن، ثم الموت ، ثم الحياة في الآخرة.. موتتان وحياتان..
والموت بالنسبة للنفس أن تكون بلا جسد.. وأنا قبل ميلادي كانت نفسي ميتة في البرزخ.. وعندما ينتهي أجلي وأموت ستفارق نفسي جسدي وتغوص في البرزخ الذي أتت منه.. وبالنسبة ليّ في البرزخ توجد أنفس أجدادي الذين عاشوا قبلي هذه الحياة الدنيا، كما توجد فى البرزخ أنفس أحفادي الذين لم يأتوا بعد وقت دخولهم في الحياة الدنيا.. ففي البرزخ أنفس السابقين والذين لم يأتوا للدنيا بعد..
ومن المستحيل أن يتعرف أبي الميت في البرزخ على حفيدي الذي لم يأت الحياة بعد، لأن البرزخ موات لا إحساس فيه ولا حياة للجميع من الموتى.. والله تعالى يقول عن انعدام الحياة والإحساس في الموتى (وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ)، (فاطر 22). ويقول عن عبادة الأولياء الموتى في الأضرحة: (إِن تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُواْ)... (أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ) (النحل21).
إذن فالموتى من الأولياء والآخرين مجرد تراب لا إحساس فيهم.. ولو كان هناك إحساس لالتقى الأجداد بالأحفاد كما نتخيل في أضغاث الأحلام.

الموت والنوم والبرزخ:

إن النفس البشرية وهي في الحياة الدنيا لا تتحمل البقاء فى السجن المادى المسمى بالجسد، لذلك تعود في الليل إلى البرزخ الذي أتت منه، ولكن تظل مرتبطة بذلك الجسد بحبل أثيري وتعود إليه بعد النوم.. فالنوم موت مؤقت، يقول تعالى: (اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مِوْتِـهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِـهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىَ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىَ إِلَىَ أَجَلٍ مّسَمّى) (الزمر 42). ومعنى يمسك الله النفس التي قضى عليها الموت أنه لم يعد لها شأن بالقبر أو بأسطورة عذاب القبر. الميت المدفون في القبر ليس مدفونا منه الا جسده الفاني فقط، أما ذاته الحقيقية ـ كينونته ـ أي نفسه فقد أمسكها الله تعالى عنده، أي أنها أصبحت حبيسة البرزخ، وهو مستوى في الوجود بين الدنيا والآخرة تغوص فيه الأنفس عند الوفاة.
فالوفاة هنا نوعان، موت ونوم، والنوم موت مؤقت، يتميز عن الموت المعروف بأنه عارض وقتي ومتكرر، وبأن النفس لا تقطع صلتها فيه مطلقاً بالجسد بسبب ذلك الحبل السرى بينهما، والذي يعطى نوعاً ما من الإحساس تخلله الأحلام.. ويجمع بين الموت والنوم أن النفس تغوص فيهما في البرزخ الذي يعني الموت أو انعدام الإحساس بالزمن، ولأن الزمن هو الضلع الرابع للمادة فإن النفس عندما تتحرر من الجسد المادى تتحرر أيضاً من الزمن وعندما تعود النفس إلى الجسد يتهيأ للإنسان أنه نام أو مات منذ يوم أو بعض يوم فقط.. لأن فترة البرزخ سواء كانت نوماً أو موتاً لا إحساس فيها بالزمن.. وأعرف صديقاً دخل في عملية جراحية عصر يوم الجمعة قبيل مبارة الأهلى والزمالك وكان مشغولاً بها، وأفاق يوم الثلاثاء، فسأل عن نتيجة المباراة وهو يظن أنه يوم الجمعة.. أي أنه لم يحس في نومه أو إغمائه بمرور الأيام.
والقرآن يعطينا الأمثلة على انعدام الإحساس بالزمن أو انعدام الشعور بالحياة في البرزخ في الموت أو النوم.. كالرجل الذي مر على قرية خربة وتعجب كيف ستعود لها الحياة يقول تعالى: (أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىَ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىَ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىَ يُحْيِـي هَـَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ

عَامٍ ثُمّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ)، (البقرة 259). فالرجل نام مائة عام وعندما استيقظ ظن أنه نام يوماً أو بعض يوم، والقرآن يجعل النوم موتاً، لأن النوم موت مؤقت وأهل الكهف حين استيقظوا بعد 309 سنة قالوا: (لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ)، (الكهف19)، وتذكروا مطاردة قومهم لهم على أنها حدثت بالأمس القريب (إِنّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلّتِهِمْ) (الكهف 20)، ولم يعرفوا أن قومهم قد انقرضوا منذ ثلاثة قرون...!! ونفس الحال في البعث حين يستيقظ البشر جميعاً يظن المجرمون أنهم ماتوا بالأمس القريب (كَأَنّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوَاْ إِلاّ عَشِيّةً أَوْ ضُحَاهَا)، (النازعات 46). أي يظنون أنهم لم يلبثوا في البرزخ إلا يوماً أو بعض يوم.. ويحكى القرآن تساؤلهم عن الحشر (يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لّبِثْتُمْ إِلاّ عَشْراً. نّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لّبِثْتُمْ إِلاّ يَوْماً) (طه103، 104).

ولو كان هناك عذاب في القبر لأحسوا به، خصوصاً وهم عصاة مجرمون، ولكنهم ماتوا وفقدوا الإحساس وحين استيقظوا ظنوا أنهم ماتوا بالأمس القريب، بل إنهم يقسمون بأغلظ الأيمان أنهم ما لبثوا في البرزخ إلا ساعة، والساعة هنا تعني يوماً أو بعض يوم، وليس 60 دقيقة، يقول تعالى: (وَيَوْمَ تَقُومُ السّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ. وَقَالَ الّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللّهِ إِلَىَ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَـَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَـَكِنّكُمْ كُنتمْ لاَ تَعْلَمُونَ) (الروم55، 56).

هم المجرمون الذين يدعي أصحاب الخرافة القائلة بعذاب القبر أنهم يعذبون في القبر- هؤلاء المجرمون يحكي القرآن أنهم يقسمون عند قيام الساعة إنهم ما لبثوا غير ساعة.. ومن الطبيعي أنهم لو كانوا يعذبون في القبر وكانوا يحسون بذلك العذاب لأحسوا بمرور الوقت ألاف من السنين يزيدها العذاب بطئاً وقسوة.. ولكن لأنه لا وجود لعذاب القبر ولأنه مجرد موت في البرزخ بلا إحساس فإن المجرمين أنفسهم يقسمون أنهم ما لبثوا غير ساعة.. ويقول لهم المؤمنون العلماء إنهم لبثوا في البرزخ إلى يوم البعث ولكنهم لم يعلموا لأنهم كانوا نياماً ففقدوا الإحساس بالزمن.

بين البرزخ ولحظة الاحتضار:

ولأن البرزخ منطقة انعدام للزمن والإحساس والشعور والحياة فإن القرآن يتخطاه أحياناً ويربط بين آخر شعور للإنسان عند الاحتضار والموت وأول شعور له وإحساس له عند البعث والقيامة. يقول تعالى: (وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ. وَنُفِخَ فِي الصّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ) (ق19، 20). فآخر إحساس هو سكرة الموت ثم ينعدم الإحساس في البرزخ ويبدأ الإحساس بنفخ الصور عند البعث.

وعند سكرة الموت يرى الميت ملائكة الموت، فإن كان خاسراً يصرخ طالباً فرصة ثانية (حَتّىَ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبّ ارْجِعُونِ. لَعَلّيَ أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلاّ إِنّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىَ يَوْمِ يُبْعَثُونَ) (المؤمنون 99، 100) فالخاسر عند الموت يطلب فرصة أخرى ليعمل صالحاً!!.

وقد يكون الميت خاسراً جداً حتى إن ملائكة الموت تضربه (فَكَيْفَ إِذَا تَوَفّتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ) (محمد 27). (وَلَوْ تَرَىَ إِذْ يَتَوَفّى الّذِينَ كَفَرُواْ الْمَلآئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ) (الأنفال50).

إن ملائكة الموت تنذر العصاة بالعذاب الذى ينتظرهم، كما تبشر المتقين عند الموت وبعدها يدخل الميت البرزخ أو الموت ويستيقظ في البعث وكأنه نام أو مات منذ يوم أو بعض يوم..
إن لحظات الاحتضار تشهد حواراً بين ملائكة الموت والميت، تبشره إن كان تقياً وتؤنبه وتؤذنه بالنار إن كان خاسراً، ومن أكثر الخاسرين أولئك الذين يكذبون على الله ورسوله، ولأنهم أعظم الظالمين يفترون على الله أكاذيب ما أنزل بها من سلطان كالشفاعات وغيرها فإنه يقال لهم نفس التأنيب عند الموت وعند البعث، ويقول تعالى يصف لحظاتهم الأخيرة في الدنيا ولحظاتهم الأولى في الآخرة (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمّنِ افْتَرَىَ عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنَزلَ اللّهُ وَلَوْ تَرَىَ إِذِ الظّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ باسطو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوَاْ أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ غَيْرَ الْحَقّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ. وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىَ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوّلَ مَرّةٍ وَتَرَكْتُمْ مّا خَوّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىَ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ الّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَآءُ لَقَد تّقَطّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلّ عَنكُم مّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ) (الأنعام 93، 94).
عند الموت تقول لهم الملائكة: (أَخْرِجُوَاْ أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ غَيْرَ الْحَقّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ).
وعند لقاء الله يوم القيامة يقال لهم (الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ غَيْرَ الْحَقّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ. وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىَ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوّلَ مَرّةٍ وَتَرَكْتُمْ مّا خَوّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىَ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ الّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَآءُ لَقَد تّقَطّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلّ عَنكُم مّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ).
وما بين الموت ولقاء الله تعالى برزخ لا إحساس فيه ولا حياة (لَعَلّيَ أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلاّ إِنّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىَ يَوْمِ يُبْعَثُونَ) (المؤمنون 100). وحين البعث يقسمون أنهم ما لبثوا غير ساعة (وَيَوْمَ تَقُومُ السّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ) (الروم55).
ولأن البرزخ منطقة انعدام للإحساس فالقرآن تجاوزه أحياناً مكتفياً بالتأكيد على أفظع إحساس للإنسان (عند الموت) في آخر حياته، وعند البعث.. وما بينهما يمر كأنه يوم أو بعض يوم..وذلك في حد ذاته أكبر دليل على أنه لا وجود لما يعرف بعذاب القبر أو نعيمه أو حسابه.. أو الثعبان الأقرع.
وهذه هي القاعدة..

ولكن لها استثناءات محددة.. ذكرها القرآن، وهي القتلى في سبيل الله وآل فرعون وقوم نوح..

القتلى في سبيل الله:
الشهداء في الآخرة - حسب مفهوم القرآن - هم الذين يشهدون على أقوامهم بتبليغ الحق (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمّنِ افْتَرَىَ عَلَى اللّهِ كَذِباً أُوْلَـَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىَ رَبّهِمْ وَيَقُولُ الأشْهَادُ هَـَؤُلآءِ الّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىَ رَبّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظّالِمِينَ) (هود 18). (وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلّ أُمّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مّنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَىَ هَـَؤُلآءِ وَنَزّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لّكُلّ شَيْءٍ) (النحل 89). ويقول تعالى عن أولئك الشهداء يوم القيامة (وَأَشْرَقَتِ الأرْضُ بِنُورِ رَبّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِـيءَ بِالنّبِيّيْنَ وَالشّهَدَآءِ) (الزمر69). أولئك هم الشهداء الذين يشهدون على قومهم..

أما الذين يموتون قتلاً فى سبيل الله فقد يكون منهم دعاة يشهدون على قومهم يوم القيامة وقد لا يكون. ولكن يذكر القرآن أنهم أحياء عند ربهم يرزقون، ولأنهم استثناء في موضوع البرزخ فالله تعالى ينهانا أن نقول عنهم أنهم موتى (وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ) (البقرة154). هم أحياء لأنهم وهبوا حياتهم الدنيا لله تعالى فمنحهم الله تعالى حياة خالدة بعد الحياة الدنيا التى فقدوها ابتغاء مرضاة الله، ولأنها حياة في مستوى آخر من الوجود لا نعرفها فالله تعالى يقول: (بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ) وإن كنا لا نشعر بهم في حياتنا المادية البشرية فهم يشعرون بنا، ونعلم ذلك من قوله تعالى، وهو عالم الغيب والشهادة: (وَلاَ تَحْسَبَنّ الّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبّهِمْ يُرْزَقُونَ. فَرِحِينَ بِمَآ آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مّنْ خَلْفِهِمْ أَلاّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ) (آل عمران169، 170).

فالله تعالى يؤكد على النهي بألا نحسبنهم أمواتاً بل أحياء عنده تعالى وهم يتمنون نفس النعيم لرفاقهم في الحياة الدنيا، أي يشعرون بهم، ونظير ذلك ما حكاه القرآن الكريم عن الرجل المؤمن في قصة القرية المذكورة في سورة (يس): (قِيلَ ادْخُلِ الْجَنّةَ قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ. بِمَا غَفَرَ لِي رَبّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ) (يس27،26).

وربما تكون تلك الجنة هى الجنة التي كان فيها آدم وزوجه.. وربما تكون جنة المأوى المذكورة في سورة النجم.. الله تعالى أعلم.

ولكن المهم أنه لا صلة بين ذلك وموضوع القبر من النعيم والعذاب.. فأولئك (أحياء) وليسوا موتى، وهم (عند ربهم) وليسوا من سكان القبور، ولا يصح لعاقل أن يستشهد بذلك الاستثناء على إثبات خرافة ما أنزل الله بها من سلطان.

آل فرعون وقوم نوح:

الذي يفقد حياته قتلاً مضحياً بها فى سبيل الله تعالى يهبه الله حياة أبدية وقت البرزخ وفي الآخرة يعيش في نعيم دائم.. وفي المقابل فهناك من عاش حياته الدنيا بأكملها يحارب الله تعالى ويضطهد النبي المرسل إليه حتى يفقد حياته في سبيل الشيطان وذلك ما ينطبق على آل فرعون وقوم نوح فقط، ونقول فقط مع كثرة المكذبين الذين حاربوا الله ورسله لأن القرآن ذكرهم فى هذا الخصوص بالتحديد وذكر أيضاً أن المجرمين حين تقوم الساعة يقسمون ما لبثوا غير ساعة، إذن القاعدة العامة أن المجرمين يستيقظون عند البعث وقد مرت عليهم فترة البرزخ بدون إحساس أو شعور أو عذاب.. والاستثناء هو حالة آل فرعون وقوم نوح..

يقول تعالى عن قوم نوح (مّمّا خَطِيَئَاتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَاراً فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُمْ مّن دُونِ اللّهِ أَنصَاراً) (نوح25). أي بسبب خطاياهم أغرقهم الله فأدخلهم النار مباشرة بعد الغرق. أى فى البرزخ.

وقد استمرت خطاياهم عصياناً مدته ألف سنة إلا خمسين عاماً رفضوا فيها دعوة نوح حتى قال نوح في النهاية يائساً من هدايتهم (وَقَالَ نُوحٌ رّبّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيّاراً. إِنّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوَاْ إِلاّ فَاجِراً كَفّاراً) (نوح26، 27). وأوحى الله تعالى إلى نوح بمصير قومه المشركين ومجيء الطوفان الذي لن يبقى منهم أحدا. وأخذ نوح في صنع السفينة وكبار المشركين يمرون به يسخرون منه ويرد عليهم نوح بما يدل على أن الله تعالى أوحى إليه بمصيرهم في الموت بالطوفان والعذاب بعده في البرزخ. يقول تعالى: (وأوحى إلى نوح أنه لن

يؤمن من قومك إلا من قد أمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون. و أصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبنى في الذين ظلموا إنهم مغرقون). ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه، (قال أن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون. فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم) (هود 36-39). أي إن نوح سيرد على سخرية المشركين به حين يأتيهم عذاب الخزى في البرزخ وبعده العذاب المقيم المستمر في يوم القيامة. نوعان من العذاب قال نوح لقومه أنهم سيعلمون بأمرهما، أول نوع من العذاب هو في البرزخ بعد الموت غرقا بالطوفان، وعنده سيرد نوح على سخريتهم بسخرية مماثلة تشعرهم بالخجل من أنفسهم. أما العذاب الآخر فهو مؤجل ليوم القيامة.

وأصبح كفار قوم نوح أئمة للكفار في كل الأمم اللاحقة، ويأتي كل نبي يخوف قومه بمصيرهم.. وقصة الطوفان تحتل مكانتها في كل تراث قديم للشعوب المنقرضة..

وكما كان قوم نوح أول الأمم التى أهلكها الله بالطوفان كان آل فرعون هم آخر من أهلكه الله بطوفان البحر الأحمر.. وقد سار فرعون وآله على نفس الطريق الذي سار عليه قوم نوح. رفضوا بإصرار كل الآيات التي جاء بها موسى وأخوه هارون، ووصل فساد فرعون إلى إدعاء الإلوهية العظمى والربوبية العظمى ولم يسمح لموسى أن يهرب بقومه من استبداده، وقضى فرعون آخر أيامه في مطاردة الفارين من ظلمه واستبداده، ووهب حياته حتى آخر لحظة للشيطان..

لذلك جعله الله وآله أئمة للكافرين الآتين بعده (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمّةً يَدْعُونَ إِلَى النّارِ) (القصص 41)، تماماً مثلما كان قوم نوح.. وقال تعالى أن المشركين اللاحقين (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذّبُواْ بِآيَاتِنَا) (آل عمران 11)، (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذّبُواْ بآيَاتِ رَبّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ آلَ فِرْعَونَ وَكُلّ كَانُواْ ظَالِمِينَ) (الأنفال 54). أي يشبه بفرعون كل مشرك أتى بعده.

واختص الله فرعون وآله بعذاب في البرزخ يكون مقدمة العذاب الأسوأ في الآخرة (فَوقَاهُ اللّهُ سَيّئَاتِ مَا مَكَرُواْ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوَءُ الْعَذَابِ. النّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السّاعَةُ أَدْخِلُوَاْ آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدّ الْعَذَابِ) (غافر 45، 46). إذن هنا أيضا نوعان من العذاب ، الأول هنا وصفه الله تعالى بأنه "سوء العذاب"، والآخر هناك موصوف بأنه "أشد العذاب".

فالقرآن في قوله تعالى (فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب) يتحدث عن كيف أنجى الله تعالى مؤمن آل فرعون من مكر فرعون وآله، وتم ذلك بإغراقهم في البحر ودخولهم سوء العذاب في البرزخ وليس في القبر، والآية القرآنية تشير إلى عذاب فرعون في البرزخ إلى قيام الساعة حيث سيدخل بعدها إلى نوع آخر من العذاب هو "أشد العذاب"، ولنا أن نتخيله في البرزخ وهو يعاني فيه العذاب بينما يرى ما أنعم الله تعالى به على المستضعفين من بني إسرائيل، وهكذا معنى قوله تعالى في قصة موسى وفرعون (إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم).. إلى أن يقول الله تعالى عن بن ي إسرائيل (ونمكن لهم في الأرض، ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) (القصص4، 6).

فقد كان فرعون في طغيانه يضطهد بني إسرائيل خشية منهم، وحدث ما كان يحذر منه وتم تمكين الله تعالى لبني إسرائيل بعد غرق فرعون مصداقاً لقوله تعالى: (فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم) إلى أن يقول تعالى عن بني إسرائيل (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها. وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا. ودمرنا ما كان

يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون) (الأعراف 136، 137). إذن فالتدمير لما كان يصنع فرعون والتمكين لبني إسرائيل حدث بعد غرق فرعون.. إذن فكيف يرى فرعون ذلك بعد غرقه؟.. لأن فرعون وآله كانوا ولا يزالون في البرزخ يعيشون في عذاب إلى أن تقوم الساعة. ثم سيأتي أشد العذاب يوم القيامة بعد سوء العذاب في البرزخ، مصداقاً لقوله تعالى عنهم (النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) (غافر46).

إن عذاب فرعون ليس في القبر ولكنه عذاب في البرزخ لأن الخصوصية التالية لفرعون أن الله أنجى جسده وقال له عند الموت (فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً) (يونس 92). ولو كان هناك عذاب قبر كما يقول أشياع الثعبان لظل جسد فرعون في القبر ينهشه الثعبان.. ولكن أمر الله بأن يظل جسد فرعون سليماً ليكون عبرة لمن بعده... والخصوصية الأخيرة لفرعون أنه يأتي إماماً لقومه يدخل النار بهم (يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ. وَأُتْبِعُواْ فِي هَـذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ) (هود98، 99).

لقد كان فرعون وقومه أئمة الضلال.. لذلك كانت له خصوصيات في العذاب ومنها عذاب البرزخ، يظل يعيش فيه معذباً إلى يوم القيامة، يمثل ما كانت خصوصيات قوم نوح تمنحهم دخول النار..

وفي المقابل فإن الذي يهب حياته الدنيا لرب العزة يهبه الله تعالى نعيماً أبدياً في البرزخ والآخرة..

وفي النهاية هي استثناء للنعيم والعذاب في البرزخ حيث لا نشعر وحيث لا نعلم إلا مما ذكره علام الغيوب في القرآن الكريم، ولأنها قضية غيب فالمؤمن يقتصر فيها على التسليم والتدبر للآيات دون أن يدخل في الأساطير، وإذا فعل ذلك فقد وفر طاقته للبحث في الكون المادي مطيعاً قوله تعالى (أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِيءُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ. قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِيءُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (العنكبوت20،19).

ولكن بعضنا يحشو عقله بالخرافات وينشرها في الأرض معرضاً عن النظر العلمي في الكون الذي خلقه رب العزة (وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) (يوسف105).

ولو اتبع المسلمون المنهج العلمي التجريبي في القرآن لأصبحت حضارة الغرب من نصيبهم ولكنهم تركوا منهج القرآن العلمي والعقلي واتبعوا منهج الثعبان الأقرع.

وتلك قضية أخرى.

الفصل الثالث

الأبعاد النفسية لعقيدة عذاب القبر والثعبان الأقرع

يبدأ الإنسان طفولته بطرح أعظم الأسئلة وأهمها عن ماهية وجوده وسبب وجود العالم والحياة والموت وغيرها من الأسئلة التى احتار في بحثها الفلاسفة ولا يزالون.
وبينما يظل الفيلسوف يجري بعقله محاولاً الإجابة على سؤال "لماذا" فإن باقى البشر سرعان ما ينسون تلك القضايا المعضلة التي كانت تلح على نفوسهم وهي لا تزال على فطرتها ونقائها، والسبب أن الجسد شغل النفس بفتوته وغرائزه وبدلاً من أن تستمر النفس في التفكير في الفلسفة العليا يأخذها الجسد شيئاً فشيئاً إلى الانكفاء على العالم المادي بما يعنيه من شهوات وطموحات تهدف كلها إلى تحقيق أكبر قسط من اللذة المادية والمتعة الحسية.. حتى إذا ضعف الجسد ووهن منه العظم واشتعل الرأس شيباً كانت النفس قد تم تسييسها بالطواف حول متع الدنيا، وبدلاً من أن تعود النفس إلى براءتها الأولى وفطرتها السامية فإن ضعف الجسد يدفعها للتباكي على أطلال الماضي والشباب الذي ولى والذي لن يعود والصحة التي ارتحلت إلى غير رجعة.. حتى إذا نام الإنسان على فراش الموت تركزت عليه الأنظار، أقصد تركزت على جسده على أنه هو نفس الشخص، وقلما يتذكر أحدهم أن ذلك الجسد الواهن مجرد ثوب انتهى عمره الافتراضي وقد آن للنفس أن تغادره لتعود من حيث أتت..
قلما يفكر أحدهم في الشخص المحتضر بمعزل عن الجسد، بل يحسبون الجسد حتى في وهنه وخفوت بريق الحياة فيه هو نفس الذات.. القرآن يسمي الجثة في حالة الحياة وحالة الموت "سوأة" ونحن لا نرى في هذه "السوأة" إلا الإنسان نفسه والكائن العاقل ذاته، ونحن نتخيل الجسد المادي هو ذلك الكائن العاقل الذي مات وانطفأ نور الحياة فيه، ومن طول معاشرتنا له في الحياة الدنيا وتعاملنا معه على المستوى الجسدي المادي لا نرى له ماهية أخرى غير ذلك الجسد الذي عايشناه ولا نعرف غير ذلك الوجه المادي الذي كنا نفرح بمرآه أو نكره رؤيته.. أي أن كل خبراتنا محصورة في ذلك الجسد وننسى أننا في الحقيقة كنا نتعامل مع "نفس" هي التي كانت تسيطر على ذلك الجسد وتقوده، وحين كانت تأخذ منه أجازة في الليل كان ذلك الجسد ينام ولا يصبح صالحاً للتعامل معه بالتفاهم أو بالنقاش.. ننسى أن النفس التي تنظر إلينا من خلال العينين هى بمثابة قائد السيارة.. والجسد هو السيارة التي تقودها. تظل السيارة واقفة مجرد هيكل مادي ميت لا يحس ولا يتحرك، فإذا دخل فيها السائق دبت فيها الحياة، ولمعت عيناها، أى مصابيحها، علا صوتها، تلاحقت أنفاسها، ثم سارت في الطريق كأي كائن عاقل يسرع ويبطئ ويعي الإشارات الضوئية والصوتية ويداور ويناور ويتحرك ويتوقف ليحمل محتاجاً، أو يجري ليصدم إنسان ويقتله.. هل تفعل السيارة كل ذلك بذاتها، أم أن السائق في داخلها هو الذي يجعلها تعبر عما يريده هو؟..
هذا هو حال النفس بالنسبة للجسد. الجسد هو السيارة والنفس هي السائق والقائد.
ولكننا ننسى القائد ونركز اهتمامنا على هيكل السيارة، أقصد ننسى النفس ونهتم بالجسد ونراه عين الذات للإنسان وإنه هو الماهية..

وقد يقول قائل أن الجسد هو الذى يحس وهو الذي يتعذب ويتألم ويتلذذ. وذلك خطأ.. فالجسد هو الوسط الذى تحس به النفس باللذة والألم، أو هو الوسيط الذي ينقل للنفس الإحساس باللذة والألم.
المخ هو المقعد المادي للنفس وبه تسيطر على الجسد.
ففي العملية الجراحية نقوم بالتأثير على المخ. أو حجرة التحكم المركزي التي يتحكم فيها ذلك الكائن المسمى بالنفس ويسيطر بها على الجسد، وحينئذ يفقد الإنسان الإحساس الكلي أو الموضوعي.
ونفس الحالة في اللذة..
في اللذة الجنسية لابد من تهيئة النفس ولابد أن يكون الدافع نابعاً منها، وحين ينهمك الجسد في اللقاء الجنسي فالحقيقة أنه ليس لقاءاً جسدياً، بل هو لقاء نفسين من خلال المجال الجسدي لكليهما، والتركيز على ذلك الجانب النفسى العاطفي هو الذي يجعل اللذة الجنسية تصل إلى قمة الإحساس باللذة.. أما عدم الاهتمام النفسي فيؤدي دائماً إلى البرود والنفور، والكراهية من أحد الطرفين للآخر..
النفس هي العامل الأول والأخير في اللذة والألم، والجسد هو الوسيط المادي الذي تنفعل به النفس في اللذة والألم..
ولكننا – كالعادة - ننسى النفس ونركز على الجسد..
ولكن ما صلة هذه المقدمة الطويلة بعذاب القبر؟!

إن تركيز الانتباه على الجسد وإهمال النفس يجعلنا نسئ فهم الموت ويجعلنا على استعداد لتصديق الأساطير عن الموت وعذاب ما يعرف بعذاب القبر..
الذين تتعلق عيونهم بالمحتضر على فراش الموت ولا يرون فيه إلا مجرد جسد يموت يتعاظم لديهم الإحساس بفظاعة الموت ومنها يترجمون حركات الذي يجود بأنفاسه الأخيرة، ويحسبون تقلصات وجهه على أنها ألم شديد ومعاناة هائلة، وكلهم يخشى على نفسه تلك اللحظة..
هذا مع أن الموت كما يقرر القرآن هو نوم أو سكرة أو إغماءة، وفي كل الأحوال فلا مجال للشعور بالألم.. مع ذلك فالذي ترسب في مشاعر الناس عبر تراثهم وتاريخهم أن الموت كريه وقاس بشع مؤلم خصوصاً وهو تجربة جديدة لكل إنسان، أن تخرج نفسه نهائياً من جسده، ولم يحدث أن عاد إنسان بعد تجربة الموت الحقيقي ليحكي للأحياء مشاعره بالضبط. إن الذي يحدث هو أن الذي يموت لا يعود ليخبرنا بمشاعره، لذلك يظل كل منا ينتظر دوره بفزع ويتعامل مع الموت الذي ينتظره من خلال الأساطير التي تحك ي عن الموت، وليس من خلال حقائق القرآن الكريم عن الموت، وحتى حقائق الطب عن الموت لا تختلف عما أشار إليه القرآن من قبل..
ولكن يظل الوهم أوقع في التأثير لأنه أكثر التصاقاً بالمشاعر.. لو أنهم عرفوا أن النفس تفارق جسدها وتتحرر منه بنفس ما تعودت في النوم، ولكن الفراق هنا أبدي - لو عرفوا ذلك لاستراحوا ولتخففوا من كثير من الكوابيس.
وينطبق نفس الوضع على أساطير وكوابيس عذاب القبر.. فبسبب التركيز على الجسد واعتباره هو ذات الشخص تتقافز أمام عقولهم عفاريت الليل، فذلك الشخص – أي ذلك الجسد - دخل القبر وهو حفرة في باطن الأرض مظلمة كئيبة، وينام فيها وحده محشوراً محاطاً بعظام وأموات، حيث لا رفيق ولا صديق ولا حبيب!!.

وحين يضعون ذلك الجسد في تلك الحفرة لا يعلمون أنهم يضعون ثوباً بالياً كانت فيه النفس وتركته، ولا يعلمون أن الشخص الحقيقي أو الذات الحقيقية للإنسان قد غادرت ذلك الجسد أو تلك السوأة، وأن مصير ذلك الجسد هو العودة للتراب، والصورة المثلى لعودته للتراب أن يكون جزءاً من التراب، أى دفنه في التراب..
لا يعلمون ذلك، ويغيب عنهم ذلك..
ويرون الجثة الميتة هي نفس الشخص بأحاسيسه ومشاعره وذاتيته ويتصورون الشخص العزيز لديهم وقد أصبح أسير حفرة في باطن الأرض ويتخيلون ما يحدث له في هذا السجن الضيق الانفرادي الذي يخنق الأنفاس..
ومن هذا التخيل تولدت حكايات وأساطير وخرافات.. ولذلك تحفل أدبيات التراث بصور أسطورية كثيرة لعذاب القبر ، فالكافر في قبره يتعرض لتسعة وتسعين تنيناً ولكل تنين سبعة رؤوس وتلدغه حتى تقوم الساعة، والكافر يُضرب بمطارق من حديد وبمرزبة تكفي الضربة منها لإحالة الجبل إلى تراب، والنساء تعلقن من أثدائهن.. والشفاه تقرض بمقارض من حديد.. إلخ هذه الصورة البشعة لعذاب القبر، ولأنها حكايات عن المجهول فقد تلقفها الناس بالشغف والقبول، لأنها تشبع رغبتهم الفضولية في معرفة ذلك المجهول الذي ينتظرهم.. ولأنه أمر غيبي ومنسوب لله تعالى ورسوله – بزعمهم – فلا بد أن يتلقاه الناس بالقبول والتسليم ولابد أن يصبح ديناً..
وطالما أصبح ديناً فقد صار له أولياؤه وأصحابه الذين يأخذون من هذه الأساطير مادة خصبة للترغيب والترهيب، فالقبر يتحول إلى روضة من رياض الجنة، أو يتحول إلى حفرة من حفر النار، ثم لا يلبث أن يتحول ذلك الدين الأرضي إلى مجالات التجارة والارتزاق والاستخدام السياسي.
فإذا كنت تريد أن يتحول قبرك إلى فندق خمس نجوم فتبرع يا أخي بكذا.. وإلا فإن الثعبان الأقرع فى انتظارك!!.
ومنذ العصر الأموي استحدث بنو أمية وظيفة الراوي في المسجد أو من كان يسمى بالقصّاص ـ بتشديد الصاد ـ ، وكان يجلس في المسجد بعد الصلاة للدفاع عن السلطة الأموية وتبرير فظائعها ولكن بصورة غير مباشرة وتحت ستار الوعظ، لذا كان منهج صاحب القصص أن يجذب إليه عقول السامعين بالأساطير والحكايات، وكلما توغل في الكذب ازدادت جماهيريته وازداد تأثيره..ولقد كان العصر الأموي عصر الروايات الشفهية التي تم تدوينها فيما بعد في العصر العباسي منسوبة للنبي بعد أن دخل فيها الكثير من التحريف والتخريف، دونها كثيرون أبرزهم "ابن برزويه" صاحب الانتماء المزدكي والأصل المجوسي، وهو المشهور بيننا بلقب البخاري المتوفى سنة 256هـ.
كانت خرافات الترهيب وعذاب القبر المادة المفضلة للقصاص في العصر الأموي، ثم جاء الفقيه "الأوزاعي" الذي عاصر الخلافتين الأموية والعباسية وخدمهما معاً، وكان من أشهر القصّاص في الدولتين، وهو الذي اخترع حد الرِّدة وهو أيضاً المصدر الأساسي لخرافات عذاب القبر، وتحولت معظم أقاصيصه إلى مرويات وأحاديث يعززها بأن لها جذوراً فرعونية في عقول الناس من آلاف السنين.
إن بعض أنواع الماعز تعتقد إن الشيطان قد قدم استقالته بعد ظهور الإسلام وبعد موت خاتم الأنبياء وإن أهل البلاد المفتوحة قد دخلوا في الإسلام أفواجاً دفعة واحدة وبإيمان عميق لا مجال

للشك فيه، وأنه حتى الآن فإيمان أحفادهم المسلمين اليوم هو التطبيق الحرفي المخلص للإسلام الذي كان عليه خاتم النبيين عليهم جميعاً السلام. ولذلك تستهجن تلك الماعز أي دعوة لإصلاح المسلمين وتهاجم كل من حاول الإصلاح لأن الذي يجب إصلاحهم ودعوتهم للهداية هم الذين لم تبلغهم الدعوة في مجاهل أفريقيا وأحراش الغابات الاستوائية والصحاري القطبية. وأنواع أخرى من الذئاب ترى أن الهدف الأسمى هو أن يخضع المسلمون لحكمهم طوعاً أو كرهاً لإقامة دولة الخلافة التي تعيد مجد السلف وتواصل الجهاد ضد دار الحرب الصليبية إلى قيام الساعة.
هذه الماعز وتلك الذئاب تحتاج إلى تغييب عقول الناس كي تسرق منهم الوعي والعقل، وبعدها يصبح سهلا امتطاء الضحايا ـ أو المطايا لا فارق هنالك ـ. ولكي تسرق منهم الوعي والعقل ترهبهم بأحاديث عذاب القبر وينسبون كل خرافاته للنبي حتى يقطعوا الطريق مقدماً على كل من يفكر في النقاش، إذ يكون التحذير جاهزا أنه "لا اجتهاد مع وجود النص" فإذا أصرّ جاء الإرهاب الفكري يتهم المسكين بأنه ينكر السنة. بذلك الإرهاب المسبق تخضع الجباه لشيوخ الثعبان الأقرع وهم يروعون الناس ويرهبونهم بتلك الخرافات المفزعة. والمحصلة النهائية لتلك الحملات الإرهابية الفكرية أن السامعين الذين استمعوا إليها وآمنوا بها يشعرون شعوراً خاصاً نحو ذلك الذي أدخل تلك المعتقدات في قلوبهم، يشعرون نحوه بالرهبة والاحترام الزائد فإذا خاض بهم في موضوع ديني آخر ـ مثل تغيير المنكر بالقوة ـ أطاعوه، ثم إذا أنتقل بهم بعدها إلى أن الدولة القائمة هي منكر يجب إزالته كان حتماً طاعته وإلا فالثعبان الأقرع ينتظر في القبر فاغراً فاه.

من هنا نفهم لماذا التركيز في كتابات السلفيين على عذاب القبر دون التركيز على النصف الآخر من الأكذوبة وهو "نعيم القبر" لأن الهدف هو الإرهاب الفكري المعنوي والذي يتفوق في خطورته على الإرهاب المادي الدموي. فالمعنوي يقتل العقل والكرامة الإنسانية واحترام الإنسان لذاته وهو الذي جعله الله تعالى خليفة في الأرض وسخر له ما في الكون. وبهذا الإرهاب الفكري اغتالوا جيلاً من المساكين أضاعوا عليهم الدنيا والآخرة معاً. وسعد بهم الشيطان الذي أوهمهم أنه استقال وترك لهم البلاد والعباد باحثاً عن عقد عمل مع ثعبان أقرع آخر في المريخ.

الفصل الرابع

الأبعاد التاريخية لعذاب القبر

الحضارة المصرية أقدم الحضارات وتأثيراتها على الشعوب المجاورة من الحقائق التاريخية المعروفة.
وحساب القبر ونعيمه وعذابه من أهم مقررات العقائد الدينية الفرعونية، ويؤكد الأستاذ سليم حسن في بحثه عن الحياة الدينية المصرية القديمة إن كل شيء في الشعائر الدينية كان يشير إلى الاهتمام بمصير جسد الإنسان عند الموت أكثر من نفسه أو روحه، وإن ذلك الاهتمام بمصير جسد الميت أزداد بعد طغيان عقيدة إيزيس وأوزوريس حيث كان أمل الميت أن يعود جسده للحياة السوية كما حدث في أسطورة أوزوريس الذي عاد للحياة بعد الموت.
وفي العقائد الجنائزية لما بعد الموت هناك ثلاث روايات مختلفة عن مصير الميت بعد دفنه وحسابه أمام أوزوريس الذي كان إله الموت والموتى وكان الإله العظيم لعالم الموتى وسيد القضاء للموتى في قبورهم. ويقرر إرمان في كتابه (ديانة مصر القديمة) أن الميت يصحو في القبر ليس على شكل شبح خيالي وإنما في بعث متجسد، أي يصحو بجسده وهي نفس الفكرة التي لا يزال يكررها فقهاء الأرياف عند إلقاء الخطبة التقليدية عند الدفن.. ولا يزال المصريون يعتقدونها..
ونقرأ في الفصل الخامس والعشرين بعد المائة من كتاب الموتى مشهداً لمحاكمة الميت في قبره حيث يجلس أوزوريس على عرشه وأمامه رمز أنوبيس وأبناء حورس وآكل الموتى وهو حيوان مرعب يتشكل من تمساح وأسد وفرس النهر، ويجلس قضاء أوزوريس، قضاة المحكمة، وهم على أشكال مخيفة ولهم ألقاب مفزعة وعددهم اثنان وأربعون قاضياً بعدد مقاطعات مصر القديمة، ويتم حساب الميت بوزن قلبه في الميزان ويسجل (تحوت) كاتب الآلهة النتيجة على لوحة ثم يخبر بها أوزوريس.
ويتقدم الميت مخاطباً أوزوريس بالتمجيد ثم يبدأ بالدفاع عن نفسه وينفي وقوعه في شيء من المعاصي..
والناجحون في الامتحان يدخلون مملكة أوزوريس وجنته أما الراسبون العصاة فيظلون في مقابرهم جوعى وعطشى بل أن القضاة يحملون معهم أدوات لتعذيب الموتى العصاة، والحيوان المخيف الواقف أمام أوزوريس يلتهم الميت ويمزق أعضاءه، واسم ذلك الحيوان آكل الموتى "باباي".
وفي رواية أخرى يكون الميت في قبره بين ثلاث فئات.. فئة تفوق سيئاتهم حسناتهم، ومصيره إلى الحيوان الوحشي الذي يأكله، وهنا يحدث تحوير صورة ذلك الحيوان، إذ يكون في تلك الرواية كلبة متوحشة وليس الحيوان الخرافي باباي.. وقد يكون الميت من فئة تفوق فضائله رذائله، وحينئذ ينضم إلى جنة الآلهة، وقد تتعادل حسناته وسيئاته وحينئذ توكل إليه مهمة خدمة الآلهة..
في رواية ثالثة يتحول الحيوان الخرافي الذي يعاقب الميت العاصي إلى ثعبان أفعى ضخم رهيب المنظر، وإذا أفلح الميت في حسابه أمام أوزوريس يقال لذلك الثعبان الهائل يا أفعون لا تأكله..

وانتقلت تلك الأسطورة الأخيرة إلينا في شكل جديد بعد عدة تحويرات.. أصبح أوزوريس فيها يتسمى باسم عزرائيل.. وأصبح أفعون الضخم ثعباناً أقرع، وأصبح القائمون على محاسبة الميت في قبره اثنين فقط من الملائكة أطلق عليهما لقب منكر ونكير.. ندخل بذلك إلى التفصيلات.. وجذورها التاريخية..

المؤثرات الفرعونية في الشام في عذاب القبر ونعيمه:

أشار أدولف إرمان في كتابه "ديانة مصر القديمة" إلى انتقال عقيدة إيزيس وأوزوريس إلى أوروبا واستمرارها إلى العصور الوسطى، وكان تأثيرها شديداً في الشام خصوصاً في اليهودية والنصرانية.. وأكد هذه المقولة باحثون أمثال "ويلز" في كتابه "موجز تاريخ العالم" و"شارل جينيير" في كتابه عن تاريخ المسيحية..

وقبلهم جميعاً أشار القرآن إلى تأثر بني إسرائيل بالعبادة الفرعونية برغم ما أنعم الله عليهم من آيات، حتى أنهم عندما عبروا البحر ورأوا معبداً فرعونياً في سيناء أرادوا من موسى أن يجعل لهم إلهاً (وَجَاوَزْنَا بِبَنِيَ إِسْرَآئِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لّهُمْ قَالُواْ يَمُوسَىَ اجْعَلْ لّنَآ إِلَـهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ) (الأعراف138). وحين تركهم موسى عبدوا العجل الذهبي يضاهون به عبادة عجل أبيس الفرعوني (وَاتّخَذَ قَوْمُ مُوسَىَ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنّهُ لاَ يُكَلّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَالِمِينَ) (الأعراف 148)، (فَرَجَعَ مُوسَىَ إِلَىَ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتّمْ أَن يَحِلّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مّن رّبّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مّوْعِدِي. قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَـَكِنّا حُمّلْنَآ أَوْزَاراً مّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السّامِرِيّ. فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لّهُ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَـَذَآ إِلَـَهُكُمْ وَإِلَـَهُ مُوسَىَ فَنَسِيَ. أَفَلاَ يَرَوْنَ أَلاّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلاَ يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً. وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَقَوْمِ إِنّمَا فُتِنتُمْ بِهِ وَإِنّ رَبّكُمُ الرّحْمَـَنُ فَاتّبِعُونِي وَأَطِيعُوَاْ أَمْرِي. قَالُواْ لَن نّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتّىَ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىَ. قَالَ يَهَرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلّوَاْ. أَلاّ تَتّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي. قَالَ يَابْنَ أُمّ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي إِنّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرّقْتَ بَيْنَ بَنِيَ إِسْرَآئِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي. قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسَامِرِيّ. قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مّنْ أَثَرِ الرّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوّلَتْ لِي نَفْسِي) (طه86، 96).

وفيما يخص موضوعنا عن القبر، حسابه وعذابه، فإن القرآن يشير إلى أن اليهود عبدوا (عزير) زاعمين أنه ابن الله وأنهم بذلك يسيرون على نهج الكافرين السابقين (وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ) (التوبة30). واليهود في مصطلح القرآن الكريم ليسوا كل الذين هادوا وليسوا كل من يتمسك بالتوراة بل فقط الطائفة المتطرفة من قوم موسى ومن سار على نهجهم.

أوزوريس اسمه المصري وباللغة المصرية القديمة عزير.. حرف العين يوجد في اللغة المصرية القديمة ولا يوجد فى اللغة اليونانية ولذلك فإن الأوروبيين حين نطقوا (عزير) باللغة اليونانية القديمة قالوا (أوزوريس) أي (أوزير) وتضاف إليه (s)..

وأضافت اليهود إلى (عزير) تحريفاً آخر تحول به من إله الموتى عند قدماء المصريين إلى ملك الموت، وأصبح اسمه (عزرائيل).. وتوارثنا منهم الاعتقاد بأن "عزرائيل" هو ملك الموت ولقد ذكر القرآن أسماء بعض الملائكة مثل جبرئيل ومئيكال، ومالك وتحدث عن الروح وملك الموت

ولكن لم يذكر إسماً لملك الموت.. ولأن القرآن هو وحده المصدر الذي نستقي منه الغيبيات فإن "عزرائيل" المشار إليه على أنه ملك الموت لا أصل له فى الإسلام..
وقد عرفنا أصله الإسرائيلى المأخوذ من أوزير أو عزير أو أوزوريس.
وهذا يدلنا على أن المؤثرات الفرعونية ظلت حية في مصر والشام والعراق بعد ظهور الأنبياء من بني إسرائيل وإلى ما بعد ظهور خاتم النبيين عليهم الصلاة والسلام..
والعقائد المرتبطة بالموت وعذاب القبر وحسابه مأخوذة من أصول فرعونية ولكن تحولت لبعض التحوير الذي أشرنا إليه..
وقد أحيا القصاص تلك العقائد الدينية القديمة في العصر الأموي وما تلاه.

القُصَّاص والترغيب والترهيب:
القُصَّاص هم مجموعة من الناس احترفوا الوعظ في المساجد وغيرها بعد أوقات الصلاة.
وكان عمل القُصَّاص تطوعياً في بدايته يقوم به رؤوس الصحابة للوعظ والدعوة إلى الحق، وأول من تطوع لهذه المهمة الأسود بن سريع وكان صحابياً غزا مع النبي أربع غزوات..
ثم تحول القصص إلى وظيفة سياسية دينية رسمية في العصر الأموي فقد احتاج معاوية إلى جهاز دعائي يقنع أهل الشام بأحقيته في القيام ضد (علي بن أبي طالب) لذا أصبح منصب القصَّاص يكافئ منصب القاضي، وقد يجمع الرجل بين الوظيفتين معاً، لذلك يقال أول من قص بمصر سليمان بن عتر التجيبي وكان يجمع بين القضاء والقصص وكان يمارس عمله في المسجد العتيق بالفسطاط..
وكان القصاص يجلس بالمسجد وحوله الناس فيستحوذ على ألبابهم بالحكايات والأقاصيص والأساطير ثم يخلط كلامه بالدعوة السياسية لأولي الأمر والهجوم على (أبي تراب) وهي كنية (علي بن أبي طالب)..

وهناك ناحية سيكولوجية تنبه لها أولئك القصاص وهي التركيز على التخويف والإنذار والترهيب من عذاب القبر والآخرة وبعد إخضاع المستمعين بالأساطير المرعبة عن عذاب القبر يسهل التأثير فيهم وبث الدعاية السياسية في عقولهم بعد أن تتم السيطرة عليها..
وحتى الآن فإن المتطرفين يركزون في الخطب والكتابات على عذاب القبر والثعبان الأقرع وعذاب الآخرة ليشيعوا الإرهاب الديني في النفوس ومن ثم يسهل لهم السيطرة على الناس، فطالما أخضعوا لهم الناس بالدين كان سهلاً أن يخضع لهم الناس فى أمور الدنيا..
ونعود إلى العصر الأموي الذي أعاد الأفكار الفرعونية القديمة في عذاب القبر والذي اتخذ أسلوب القصص والقصاص وسيلة للدعاية السياسية..
نقول إن المصدر الذى يستقي منه القصَّاص مادتهم الخرافية عن عذاب القبر وخلافه تتمثل في اثنين من اليهود، ومنهما جاءت "الإسرائيليات" في فكر المسلمين وعقائدهم، وهما وهب بن منبه وكعب الأحبار بالإضافة إلى عبد الله بن سلام..
ومعروف أن أبا هريرة كان صديقاً لكعب الأحبار وأنه أخذ عنه، كما أخذ أيضاً عبد الله بن عباس، وبذلك دخلت مرويات كعب الأحبار إلى الأحاديث..

ومن يريد الاستفاضة فى هذا الموضوع يمكنه أن يرجع إلى مؤلفات الشيخ محمود أبو ريه في كتابيه "أضواء على السنة"، "شيخ المضيرة" وكتاب الأستاذ أحمد أمين "فجر الإسلام".
وقد أشار الأستاذ أحمد أمين إلى أن أولئك القصاص أدخلوا الكثير من الإسرائيليات والخرافات في الحديث والتفسير والتاريخ، وقبله انتقد ابن تيميه خرافات القصاص في كتابه "أحاديث القصاص" إلا أن المؤسف أن بعض الأقاصيص الخرافية ارتدت ثوب الأحاديث النبوية وهي تمثل العقائد المصرية القديمة في حقيقة الأمر، والمؤسف أكثر أن محققي الجرح والتعديل في الحديث تساهلوا مع تلك الأحاديث لأنه لا يترتب عليها تحريم أو تحليل، إذ أن عصور الفقهاء كانت تجعل التركيز قائماً على تحري الأحاديث الخاصة بالحلال والحرام تبعاً للصراع المذهبى بين أهل الفقه، أما أحاديث الترغيب والترهيب ومنها أحاديث القبر فقد كانوا يتسامحون في روايتها، ولم يفطنوا إلى خطورتها على تكوين العقل والمعتقد، وهكذا راجت أحاديث الأوزاعي وغيره.. وانتشرت هذه الأحاديث وانسجمت الأغلبية المتدينة معها لأنها في الحقيقة بضاعتنا المصرية القديمة وقد ردت إلينا. ولأنها تتحدث عن الموت والقبر وتضخم خوفنا الغريزي من ظلمة القبر وأساطيره.. ولأن التيار الديني المتحكم الذي يريد أن يركب ظهورنا باسم الإسلام لابد له أن يضع حجاباً على عقولنا وإرهاباً في قلوبنا حتى نركع له ونخضع. وتناسينا في خضم هذا الموضوع أن نرجع إلى القرآن الكريم وأن نحتكم إليه.

خـاتــمـة

الإمام أبو الحسن الأشعري المتوفى سنة 330هـ وضع كتابه المشهور "مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين" عرض فيه لكل الفرق الإسلامية في عهده واختلافاتهم الفكرية والعقيدية والفلسفية..
وعن عذاب القبر قال: "واختلفوا في عذاب القبر، فمنهم من نفاه وهم المعتزلة والخوارج ومنهم من أثبته وهم أكثر أهل الإسلام، ومنهم من زعم أن الله ينعم الأرواح ويؤلمها فأما الأجساد التي في قبورها فلا يصل ذلك إليها وهي في القبور".

أي أن عذاب القبر قضية خلافية اختلف فيها الأوائل، وكان الأشعري نفسه طرفاً في هذا الخلاف، فقد كان أولاً من المعتزلة ثم انشق عليهم وانضم إلى أهل السنة. ولذلك فإنه بعد أن يشير إلى مذهب المعتزلة والخوارج في نفي عذاب القبر يقول عن رأي أهل السنة "ومنهم من أثبته وهم أكثر أهل الإسلام"..
ومع ذلك فالأشعري يعتبر جميع المذاهب برغم اختلافها من أهل الإسلام، بل إن عنوان كتابه هو "مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين" ومعناه أن ذلك الاختلاف في عذاب القبر وغيره لا يقدح في إسلام أحد ولا شأن له بإيمان أحد، فالجميع مسلمون مؤمنون طالما يقولون لا إله إلا الله ويؤمنون بكل رسل الله وكتبه..
ويتضح من كلام الأشعري أن أصحاب الاتجاه العقلي هم الذي أنكروا عذاب القبر، فالمعتزلة يعتمدون العقل أساساً فى المرجعية والخوارج يتوقفون عند حدود النص القرآني، وطالما لم يرد نص صريح الدلالة على عذاب القبر في القرآن الكريم فلا يعتقدون في وجود عذاب في القبر.. ثم هناك من وقف موقفاً متوسطاً وهم الذين نفوا عذاب القبر وقالوا بعذاب البرزخ ونعيمه للأرواح وليس للأجساد..

وبين الفريقين يقف أهل السنة الذين تزعمهم أبو الحسن الأشعري بعد انشقاقه عن المعتزلة، وهم يعتمدون النص سواء كان قرآناً أو حديثاً منسوباً للنبي أو تفسيراً مأثوراً، ولذلك فقد اعتمدوا الأقاويل التي تؤكد عذاب القبر..
وكلها بالطبع وجهات نظر عقلية أو نقلية أو بين هذا وذاك في قضية خلافية اجتهادية أصحابها كلهم مسلمون.

ولكن وجهات النظر تلك ظلت محصورة في نطاق ضيق لا يتعدى الكتب القديمة الصفراء ومقررات الدراسة بالأزهر، حتى جاء عصر النفط بتغيير جديد فأصبحت فيه الكتب الصفراء أكثر بياضاً وأكثر انتشاراً وأعظم تأثيراً، وأتيح لها أن تصبغ عقول الشباب فتمنعه من الانطلاق لمواكبة العصر الحديث لتجعله يعود إلى عالم العصور الوسطى..

لم يعط عصر النفط نقلة هائلة لأفكار التراث كلها بل أن هذه النقلة كانت من حظ الجانب المنغلق والخرافي من التراث الذى ساد على أنه هو الإسلام، هو رأي ما عرف بأهل السنة في موضوع عذاب القبر مثلاً وساد على أنه الإسلام وتجاهل الآراء الأخرى، وتجاهل أيضاً أنها قضية خلافية لعلماء كلهم مسلمون..

أي أن عصر النفط جعل للقضية رأياً واحداً هو مع الأسف أكثر الآراء تخلفاً وتهافتاً وتناقضاً مع القرآن الكريم الذي ينبغي أن نحتكم إليه فى كل أمورنا..

لم يكتف عصر النفط باعتماد رأي واحد ونفي ما عداه، وإنما تطرف فجعل هذا الرأي هو الإسلام وحده، وأتهم ما عداه بالكفر والإلحاد، أو بالتهمة الحديثة التي خرج لها علماء النفط من الحضارة الأوروبية، تهمة العلمانية التي تعني الكفر والإلحاد.

وبذلك أصبح واضحاً أنه يراد بنا أن نعود ليس للجانب المتعقل من التراث بل أن نعود إلى أكثر أنواع التراث تخلفاً وتشدداً أو نواجه العالم في القرن الحادي والعشرين بذلك التراث المتخلف على أنه هو الإسلام.
والنتيجة أن العالم يقفز إلى عصر المعلومات ويتقدم في كل ثانية إلى الأمام، ونحن نتراجع إلى خرافات العصور الوسطى والثعبان الأقرع.. وهذا هو ما يراد بنا.